المحاضرة السادسة عشر: نظرية الاجناس الادبية في النقد العربي

مقدمة

مثّلت مسألة تصنيف الآداب إلى أجناس تحديًا لنقاد العرب القدامى، فقد اكتفى معظمهم بالتمييز بين الشعر والنثر دون بلورة نظرية أُجناسيّة مستقلة. ويرى الباحثون المعاصرون أن النقد القديم غاب عنه التجنيس الأدبي بالمعنى الحديث، بل إنهم يؤكدون أنه إن غاب وجود نظرية واضحة فقد وُجدت «إشارات هنا وهناك» إلى فكرة الأجناس الأدبية في التراث النقدي. سنستعرض فيما يلي رؤية البلاغيين والنقاد العرب الأوائل لمفهوم الجنس الأدبي، ضمن سياق التاريخ الأدبي والثقافي الذي تأثر فيه النقد بقضيتي الإعجاز القرآني والخطابة، مبيّنين مواقفهم وتداعياتها على تصنيف الشعر والنثر.

الشعر والنثر في ضوء التراث القديم

أساس التمييز القديم يقوم على الثنائية المعروفة: المنظوم والمنثور. فقد صاغ النقاد الأوائل مثل ابن وهب الكاتب (ت229هـ) القاعدة الأوسع: «اعلمْ أن سائر العبارة في لسان العرب إما أن يكون منظوماً أو منثوراً، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام». ومن آثار ذلك اعتبارُ الوزن (الإيقاع) أهم شروط الشعر. ويروي الجاحظ عن سهل بن هارون قوله: «اللسان البليغ لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم»، فيعني أن الشاعر الفصيح نادرٌ ما يمتلك نفس بلاغة النثر، والعكس صحيح. هكذا بدا أن العرب القدامى ترون الشعر والنثر من حيث اللغة وحدة واحدة متشابهة، وأن «البلاغة أو الكلام» الجملة هي الجنس الجامع لهما.

ورغم هذا التقارب، شهد النقد العربي وعيًا بأن القرآن جاء بأسلوب لا ينطبق تمامًا على أي من الجنسين التقليديين. فقد تساءل الجاحظ مثلاً عن القول في القرآن الكريم «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» (المسد/1): «كيف يكون هذا شعرًا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر». أي: اعتبر الجاحظ أن التزام الوزن والقافية ليس وحده ما يجعل الكلام شعرًا، بل لا بد من قصد إبداعي يختلف في القرآن. وعليه، فقد انتبه الجاحظ لمسألة النية في الشعر، وبدا كمن يلمح إلى تعريف جنسي يفصل النصوص بحسب مقصود صاحبها.

اجتهادات مبكرة في تجنيس الأدب

لم يتوقف نقاد العربية الأوائل عند مجرد الشعر والنثر، بل حاول بعضهم تصنيف الأجناس. فقد ذكر عبد العزيز شُبيل أنه في كتابات بعض النقاد كأبي هلال العسكري وقدامة بن جعفر (ت374هـ) «ميّز العسكري بين أجناس الكلام المنظوم، إذ يفرّعه إلى رسائل وخطب وأشعار ثم مزج بين الخطابة والترسل...، وقسّم قدامة النثر إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ثم خلط بين هذه الأقسام». لم يستقر عندهم تصنيف ثابت، فقد اعتمدوا في نهاية المطاف على ما هو أوسع وأعم: اسم «البلاغة» أو «الكلام» جامع لكل من الشعر والنثر.

أبي هلال العسكري وقدامة بن جعفر (القرن 4هـ): جزّأ كلٌّ منهما النثر إلى أصناف وصنفها، ثم اختلطت هذه التصنيفات و«لم يستقرّ لديهم من الأمر شيء.«

الجاحظ (ت255هـ): كان أول من استخدم لفظ «الجنس» في نص نقدي، حيث صرّح بأن «الجنس صناعة»، أي أن لكل جنس أساليبه وصناعاته التي تُبدع أبياته. وقد تجلى وعيه الجنسي في السؤال السابق عن القرآن، حيث نصّ على أن القول الذي لم يقصد أصلاً شعراً لا يعدّ من جنس الشعر.

وقد تأثر ناظر هذه الجهود بأن مفهوم الجنس الأدبي لم يكن بمنزلته في الغرب القديم، فظلّ الإطار الأوسع للبلاغة ممسكًا بوحدة الخطاب. ومن ذلك قول عبد السلام هارون في تصنيفه لكتاب الجاحظ الثاني في الأدب (البيان والتبيين): «باستثناء بعض التأملات النقدية غير القادرة على تأسيس نظام متلاحم، يتلخص الكتاب في كونه اختيارًا لنصوص مختارة» (باستثناء أن بعض فصوله تناولت مقولات مختلفة دون بناء جنسي متكامل.(

الشعر والنثر والقرآن: التأثير الديني والبلاغي

لعب القرآن دورًا محوريًا في وعي النقاد المصري والعراقي بالخطاب الأدبي. فقد خلص شُبيل إلى أن «فترة ما قبل الإسلام اتّسمت بغياب وعي أجناسي، وفي فترة ظهور الإسلام مثّل القرآن جنسًا آخر يختلف عما اعتاده العرب، إذ اختزل كل الفنون الأدبية المعروفة بصورته الفريدة التي لا تشبه الشعر ولا النثر، فصار القرآن الجنس الجامع بلا منازع». ورأى شُبيل أن هذه المعجزة اللغوية القُرآنية «كان المانع من التصور الأجناسي هو الإعجاز القرآني»، حتى إن كثيرين من البلاغيين أنفسهم انصرفوا إلى إثبات إعجازه بدلاً من تصنيف الأنواع الأدبية.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قول الخطابي (المتوفى 360هـ): «القرآن يمثل جنسًا فريدًا: منظوما لا منثورًا». بمعنى أن القرآن ليس بشعر منظوم بمفهومهم، ولا هو نثر عادي، بل هو جنس مستقل. وقد قرّب الخطابي أن إعجاز القرآن يكمن في «جمعه لطبقات الكلام المختلفة معًا»، الأمر الذي يلغي الحاجة إلى تعدد الأجناس. نتيجة لذلك، لم يستمر بحثهم في تصنيف باقي الفنّانِ، باستثناء ما لزم للدلالة على إعجاز القرآن. وقد ذُكِر أن المسكوك البصري أيضًا نظر في «طبقات الكلام» القرآني، ونقل جوامع النثر والشعر بما يؤكد مكانة هذه الثنائية دون النظر إلى الأنواع الأدبية الأخرى.

أما أثر الإعجاز القرآني فيُرى كذلك في مسعى النقاد إلى إثبات علّة وجذر الأجناس الأدبية. بمعنى أنهم كلما أردوا إظهار تفوق القرآن البلاغي على الشعر أو النثر، كانوا يحتاجون إلى تحديد حدود ما يُعدّ أشكالاً بلاغية إنسانية قابلة للمضاهاة. وهذا كما لاحظ فاضل التميمي، أدى إلى بواكير بسيطة لفكرة التجنيس في النقد القديم، وإن لم تكن نظرية كاملة. على سبيل المثال، حاول بعضهم تمييز قصيدة المديح عن السجع البلاغي، أو ربط القصة القديمة بالأسلوب المقال، إلا أن هذه المحاولات لم تنضج نظريًا.

رؤية التراث: بين الوعي الجزئي والافتقار إلى نظرية

إذا كانت إشاراتَ النقد القديم إلى الأجناس الأدبية جزئية، فإن تقييم ذلك يختلف بين الباحثين. فالباحث أحمد محمد ويس أشار إلى صعوبة إيجاد نظرية جنسية واضحة في التراث، «لكن عدم وجود النظرية الواضحة» لا يعني خلوه من «الكثير من الإشارات والتقسيمات» التي تدل عليها. فبدلًا عن التصنيف الجنسي العلمي، عَوَّل النقاد على مقومات البلاغة العامة. على سبيل المثال، شدد كثيرون على وحدة «القول والكلام» عامة، ورأى صلاح فضل أن النقد القديم «غاب عنه فكرة التمييز بين الأجناس الأدبية» بسبب اختلاطها بقضايا البلاغة، فلا فرق عند البلاغي بين لغة الشعر ولغة النثر من حيث الفكرة أو الصورة.

ورفض آخرون أصولية فكرة الأجناس على التراث. يقول عبد السلام المسدي إن مفهوم «الأجناس الأدبية» غريب على قيم التراث العربي، وأن المعاصر حين يطبقه على القديم يظلّ «مصدر وهميّ» لا حقيقة تاريخية. وهذا الموقف استلهمه شُبيل نفسه، مستنتجًا أن «الأدب العربي لم يكن له نظرية أجناسية»؛ فـ«الجنس الجامع الأعلى» عند العرب كان القول أو الكلام بأشكاله كافة. وقد ذهب بعضهم إلى القول إن تقسيمات الغرب الأدبية لا تنطبق على بلاغة العرب التي «يوثر فيها التجانس والتشابه على التنوع والاختلاف.«

خلاصة القول أن التراث النقدي العربي القديم لم يكوّن نظرية صريحة للأجناس الأدبية كما في النقد الحديث. ورغم وجود تلميحات، مثل تصنيف الأغراض الشعرية (مَدحٍ، هجاء، رثاء...) والتفرقة بين أشكال الإلقاء (خطب، رسائل، خطب جمع...)، إلا أن تلك لم ترق إلى بناء منظومة مستقلة. لقد بقى المنتج الأدبي عند البلاغيين إما منظومًا أو منثورًا ضمن إطار البلاغة الشامل، مع سيطرة وعي ديني وخطابي مركزي على الكتابة. وفي التقييم المعاصر، يعيد الغالب من النقاد القول بأن التراث ظل «منكفئًا حول قضايا بعينها لم يتجاوزها»، وأنه كان يمكن أن تتطور فكرة الأجناس لو انتصبت لها جهود نقدية تراكمية. ومع ذلك، نجمع أن الشواهد النقدية تدلُّ على وجود وعي أولي بالاختلافات الأسلوبية والغائية بين النصوص، وإن ظلّت هذه الإشارات مقتصرة ولم تبلغ رتبة نظرية مستقلة في النقد العربي القديم.

نظرية الأجناس الأدبية في النقد العربي الحديث والمعاصر

يشكّل مفهوم الأجناس الأدبية أحد أهم المفاهيم النقدية التي رافقت تطوّر الوعي الأدبي في العالم العربي منذ بدايات القرن العشرين. وإذا كان النقد العربي القديم قد اكتفى بتمييز ساذج بين الشعر والنثر دون وعي نظري دقيق، فإن النقد الحديث والمعاصر قد استعاد هذا المفهوم في ضوء التفاعل مع الفكر الغربي، خصوصًا مع البنيوية والشكلانية ثم المناهج السيميائية والتفكيكية.

لقد أصبح سؤال التجنيس جزءًا من الأسئلة الكبرى المتعلقة بطبيعة الخطاب الأدبي، وبتحوّل النص من كونه "قولًا بلاغيًا" إلى كونه "بنية لغوية ودلالية" تستند إلى نظام نوعي له قوانينه الداخلية.

بدايات الوعي بالأجناس في النهضة العربية

ارتبطت بدايات الاهتمام بالأجناس الأدبية في النقد العربي الحديث بحركة النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر، حيث بدأ النقاد العرب يعيدون النظر في الحدود التقليدية بين الشعر والنثر في ضوء الاحتكاك بالثقافة الغربية.

فقد لاحظ جرجي زيدان (1861–1914) في كتبه حول تاريخ الأدب العربي أنّ الأدب الغربي يقوم على تصنيف دقيق للأنواع (الرواية، المسرحية، الشعر الغنائي...)، بينما الأدب العربي ظلّ يعتمد على التقسيم الموضوعي (المديح، الهجاء، الغزل.(...

أما طه حسين، فكان من أوائل من دعا إلى النظر إلى الأدب العربي من زاوية "الفن" لا "الوظيفة"، إذ قال في مقدمة حديث الأربعاء: "الأدب لا يُقاس بموضوعه، بل بفنه"، في إشارة إلى أهمية الشكل النوعي، واعتبر العقاد أن الشعر "فنّ تعبيريّ له منطقه الخاص"، وميّز بين الشعر الغنائي والقصصي والتأملي، متأثرًا بالتصنيف الأوروبي للأجناس الشعرية، هذه المرحلة يمكن تسميتها بمرحلة الوعي الجمالي الأول بمفهوم الأجناس الأدبية، حيث بدأ النقد العربي يخرج من عباءة البلاغة القديمة إلى فضاء الأدب كفنّ.

مرحلة التحليل البنيوي وتحوّل المفهوم (السبعينيات والثمانينيات)

شهدت السبعينيات الميلادية صعود المدرسة البنيوية والسيميائية في النقد العربي، ومعها تغيّر مفهوم الجنس الأدبي من تصنيف خارجي إلى بنية داخلية ذات نظام لغوي ودلالي.

.1عبد السلام المسدي

في كتابه الأسلوبية والأسلوب والنقد والحداثة، يؤكد أن التجنيس ليس عملية تصنيف شكلي، بل هو آلية لغوية وسيميائية تحدد طريقة اشتغال النص، يرى المسدي أن النص ينتمي إلى جنسه من خلال منظومة العلامات التي تشكّل خطابه، وليس بمجرد المضمون أو الشكل الخارجي، كما شدّد على أن الجنس الأدبي ليس ثابتًا، بل هو نسق مفتوح يتطور مع اللغة والتلقي.

.2صلاح فضل

يعدّ صلاح فضل من أبرز من بلوروا مفهوم الأجناس الأدبية عربيًا في ضوء البنيوية، في كتابه نظرية البنائية في النقد الأدبي (1978) وأساليب السرد في الرواية العربية، رأى أن كل جنس أدبي يقوم على منطق لغوي خاص، وأن التجنيس هو ما يمنح الأدب نظامه الداخلي، لكنه رفض فكرة القوالب المغلقة، مؤكدًا أن "النصوص الحديثة تتحدى حدود الأجناس وتتداخل في ما بينها" — وهو ما يسميه بـ"تداخل الأنواع."

.3محمد مفتاح

في كتبه في سيمياء الشعر القديم وتحليل الخطاب الشعري، طوّر مفتاح مفهومًا سيميائيًا للأجناس، فعدّها خطابات لها بنى دلالية وطقوس تداولية، ويرى أن التجنيس هو في جوهره عملية تداولية اجتماعية تحددها العلاقة بين المبدع والمتلقي والسياق الثقافي، لا الشكل فقط، وبذلك يكون مفتاح قد نقل النقاش من الشكل إلى الوظيفة التواصلية للجنس الأدبي.

الاتجاهات المعاصرة وتفكك مفهوم الجنس

في العقود الأخيرة، ومع صعود نظريات ما بعد البنيوية والتفكيك والتناص، عرف النقد العربي تحوّلًا كبيرًا في النظر إلى الأجناس الأدبية، أصبح كثير من النقاد يعتبرون أن الحديث عن أجناس مستقلة لم يعد ممكنًا في زمن النص المفتوح والكتابة العابرة للأنواع.

.1كمال أبو ديب

في كتابه جدلية الخفاء والتجلي وجدلية الحداثة والتقليد، يطرح أبو ديب فكرة أن الأجناس الأدبية ليست أنماطًا ثابتة، بل أنساق رمزية متحركة تتجلى في اللغة، يرى أن الرواية الحديثة والشعر الحديث يمثلان انكسارًا للحدود النوعية، لأن جوهر الحداثة هو تجاوز التصنيف نفسه.

.2عبد الله الغذامي

في مشروعه النقد الثقافي، دعا إلى تجاوز مفهوم الأجناس الأدبية تمامًا، لأن النصوص – في رأيه – تعكس أنساقًا ثقافية لا شكلية، يقول الغذامي إن "النقد البنيوي جعل النص مغلقًا داخل نوعه، أما النقد الثقافي فيراه جزءًا من الخطاب الاجتماعي العام."

.3سعيد يقطين

من أبرز من طوروا النظر في التجنيس في سياق السرديات الرقمية، ففي كتابه انفتاح النص الروائي والنص المترابط، يرى أن الأدب في العصر الرقمي يعيد تعريف الأجناس الأدبية من خلال التفاعلية والتداخل بين الوسائط (نص، صوت، صورة.(...وبذلك تصبح نظرية الأجناس الأدبية اليوم نظرية ديناميكية تعيد النظر في الحدود الفاصلة بين الأدب والفنون الأخرى.

مقارنة بين المراحل

المرحلة	التصور العام للجنس الأدبي	أبرز الممثلين
النهضة (أواخر 19م)	تقسيم موضوعي بسيط (شعر/نثر)	طه حسين – العقاد – زيدان
البنيوية (1970–1980)	بنية لغوية وسيميائية مغلقة	المسدي – فضل – مفتاح
ما بعد البنيوية (1990–الآن)	انفتاح النوع – تداخل الأنواع	كمال أبو ديب – الغذامي – يقطين

تحليل تركيبي

تُظهر هذه المراحل أن الوعي العربي بالأجناس الأدبية مرّ من التقليد إلى التجديد، ومن التصنيف إلى الانفتاح، فإذا كانت النظريات الغربية قد قدّمت النموذج المرجعي الأول، فإن النقاد العرب أعادوا صياغته في ضوء خصوصية الثقافة العربية.

لقد تحوّل سؤال الجنس من كونه شكليًا إلى كونه سؤالًا ثقافيًا وهويّاتيًا، خصوصًا في زمن ما بعد الحداثة، حيث أصبحت الرواية تكتب بلغة الشعر، والمقالة تتلبس بروح السرد، والمسرح يتداخل مع السينما والنص الرقمي.

خاتمة

إن نظرية الأجناس الأدبية في النقد العربي الحديث والمعاصر تمثّل مسارًا من الوعي الجمالي إلى الوعي التداولي والثقافي، فمن مرحلة التعريب والتقليد، إلى مرحلة البنيوية والسيميائية، وصولًا إلى تفكيك الأجناس في ضوء العولمة الرقمية، ظلّ سؤال الجنس الأدبي سؤالًا عن هوية الأدب العربي نفسه: هل نكتفي بتصنيفات غربية مستوردة؟ أم نبتكر رؤية عربية منفتحة على تحولات الخطاب؟

الإجابة التي يقدّمها النقد العربي المعاصر هي أن الأجناس ليست قوالب، بل كائنات حية تتبدل بتبدل الوعي واللغة والثقافة، وأن الإبداع الحقيقي هو الذي يتجاوز الحدود دون أن ينكرها.